الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب

دراسة تطبيقية في منهج علماء المسلمين

د. عبد الله بن عبد الرحمن الميمان
الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة القصيم

The knacking in criticism
between Muslims and Jews and Christians
An applied study in the methodology of Muslim scholars

DR.ABDULLAH ABDULRAHMAN ALMEMAN

الخلاصة

تطور الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب من خلال التاريخ منذ بدأت حركة الاحتكاك وكلما طور أهل الكتاب أدواتهم في الجدل، قابل ذلك حركة علمية ضخمة في المقابل من المسلمين، جمعت ما استطعت الوصول إليه في المصادر من شروط الملكة النقدية، ثم بينت ثمراتها في تحقيق الانتفاع من العلم، وإبعاد ساحة الجدل والمناظرة عن الخروج بلا ثمرة، وكونها تهب للمناظر حدساً في تبين حال المعاند من طالب الحق، ويسهل عليه تمييزه، كما أنها توقف الباحث عن الحق على مواطن الضلال، وتمكن صاحبها من تغيير أسلوبه الجدلي إذا لمح عدم جدواه مع المخالف إلى أسلوب أكثر فاعلية أو أدق نتيجة، وغير ذلك، وكل ما سبق كان من زاوية الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب وليس تقعيداً أصولياً محضاً ولا سرداً لوقائع المناظرات أو الجدال، بل محاولة بحثية للربط بينهما .

Abstract:

The religious debate has evolved between Muslims, Jews and Christians through history since the friction movement began and whenever Christians developed their tools in controversy, on the other hand, we find that a huge philosophical movement in return from Muslims,

In this research paper I ,v collected what I could reach from the sources about " The knacking criticism ", then I explained its impact on benefiting from religious knowledge, and the debate and debates were taken out without any beneficial result. It became unhelpful in the religious debate, and in the summary it is rather a research attempt to link the rule with application in the religious debate.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثمة هوة بين الدراسات الإسلامية في القرون اللامعة للإسلام في تقديم الدراسات الدينية المتعلقة بالدراسات الإسلامية للأديان، وبين العصر الحديث، وثمة فجوة أخرى بين الدراسات المقدمة لباحثين مسلمين حول ذات الموضوع وبين الدراسات الغربية الحالية للأديان التي تمتلك أدوات حديثة، ومناهج مختلفة، ونقد عميق، وزخم مصدري لا يستهان به، وجم غفير من الباحثين، أورث ذلك كله تلك الفجوة لمكتبة الدراسات الإسلامية، التي أعوزها اللحاق بالركب، سوى بارقة أمل تلمح في أفق الباحثين المسلمين وإن كانت بجهود فردية، تفصح – الفينة بعد الفينة – عن بروز كتاب أو مؤلف أو ورقات بحثية حول الدراسات الدينية وتضيف للمكتبة شيئاً ما، إلا أنها جهود فردية وليست مؤسسية، ومختلفة المذاهب والمشارب والمناقب، ولعل الكاتب أن يضيف لهذه المكتبة شيئاً من هذا القبيل فيكون له زاوية في أحد رفوف التاريخ المكتظة بالصحائف في عبق الغبار .

وعنوان هذه الورقة هو «الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب» دراسة تطبيقية في منهج علماء المسلمين .

- **عملي في هذا البحث مضمناً هدف البحث :**

سأقوم في هذا البحث بمحاولة دراسة ارتباط الملكة النقدية بالجدل الديني مع أهل الكتاب من خلال نماذج العلماء المسلمين الذين ألفوا أو ناظروا وتم تدوين ذلك عنهم، مما نتج عنه وضع النقاط على الحروف في تحقيق المجادلة بالتي هي أحسن، والتي أمر الله بها في كتابه الكريم.

- **أهمية البحث**

١- تحقيق المنهجية السليمة التي تسبق الجدل الديني تأسيساً وضبطاً وتقعيداً .

٢- ضبط ما أمر الله به في كتابه الكريم من المجادلة بالتي هي أحسن من خلال ضبط أحد أهم أدوات الجدال بالتي هي أحسن وهي أداة الملكة النقدية .

٣- الاطلاع على تقعيد العلماء وتطبيقهم لتلك الملكة ومحاولة رسم أطر تربط بين القواعد وتطبيقها .

- **مشكلة البحث**

يفترض منهج البحث العلمي عادة وجود إشكال تولدت عنه الفكرة البحثية، فإن كان هناك ثمة إشكال هنا فيمكن صياغته كالتالي :

١- هل يمكن تقعيد الملكة النقدية لتهيء للجدل بين المسلمين وأهل الكتاب ؟

٢- ما هو الحد المقبول من الملكة النقدية لمعالجة الجدل الديني مع أهل الكتاب ؟

٣- هل يمكن صياغة الملكة النقدية بشكل علمي بحيث تكون قابلة للتطبيق للجدل الديني مع أهل الكتاب وبالتالي يمكن الخروج بثمرة نافعة من ذلك الجدل ؟

- **الدراسات السابقة**

في الحقيقة لم تتوفر لدي دراسة سابقة تعنى بهذا الجانب الدقيق جداً، مع كون الدراسات الشريعة بطبيعتها تتناول تقاطعات هذه المواضيع بشكل كبير في ثنايا بحوثها .

لكن الربط بين الملكة وبين الجدل من هذه الزاوية البحثية قد يكون هو الإضافة في هذا البحث .

- **الهيكل العام للبحث**

سيكون الإطار العام للبحث نمطياً، يبدأ بمقدمة فيها تحرير للمصطلحات التي عنونت بها البحث، ثم :

المبحث الأول : أهمية الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب .

المبحث الثاني : ضوابط الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب .

المبحث الثالث : ثمرات الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب .

ثم في الأخير سأختم بما يتوافق مع المعتاد عليه من الطريقة البحثية المعروفة من خاتمة وفهرسة ومصادر وغيرها .

* * *

تمهيد

أكتب مستعيناً بالله تعالى، معرفاً بمصطلحات عنوان البحث، وهي كما يأتي:

١- الملكة، وهي كما عرفها الجرجاني [١]: «صفة راسخة في النفس وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقاً»[٢].

فهي: «صفة راسخة في النفس أو استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة مثل الملكة العددية والملكة اللغوية»[٣].

٢- النقدية، نسبة إلى النقد وهو الفحص بغرض الاستبانة لاستخراج الصحيح من الزائف، أصله أطلق على الدراهم ثم استخدم كثيراً في المعاني [٤].

فالمقصود بعنوان البحث هنا بالملكة النقدية هو ما اكتسبه العلماء من الاستعداد العقلي الخاص والهيئة في استخراج الصحيح من الزائف، بسبب طول المعالجة وهبة الموهبة.

٣- الجدل واشتقاقه من: «الجَدْل شِدَّة الفَتْل وجَدَلْتُ الحَبْلَ أَجْدِلُه جَدْلاً إِذا شددت فَتْله وفَتَلْتَه فَتْلاً مُحْكَماً»[٥].

ومعناه «مقابلة الحجة بالحجة والمجادلة المناظرة والمخاصمة»[٦].

ونسبته للأديان تعني أن الجدل -محل البحث- هو الجدل بين أتباع الأديان، بالحجج والمناظرة والمخاصمة.

فيكون محل البحث هو تلك الموهبة التي اكتسبها العلماء وصار لديهم لها استعداد عقلي خصوصاً في استخراج الصحيح من الزائف في دين من يناظرونه أو يخاصمونه.

---

(١) علي بن محمد بن علي الجرجاني ت ٨١٦ هـ. له مصنفات كثيرة من أشهرها من مصنفاته المشهورة شرح المفتاح وشرح المواقف العضدية وشرح تذكرة الطوس. ينظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع - (١ / ٤٦٦)

(٢) التعريفات - (١ / ٢٩٦)

(٣) المعجم الوسيط - (٢ / ٨٨٦)

(٤) ينظر: لسان العرب - (٣ / ٤٢٥)

(٥) لسان العرب - (١١ / ١٠٣)

(٦) لسان العرب - (١١ / ١٠٣)

ولما كان الجدال في الأغلب مذموماً، واستثني منه ما انطبقت عليه شروط كتاب الله وسنة نبيه ﷺ لضبط أركانه، وتقعيد أطرافه، وذلك لحساسية الجدل الديني، لكونه محل ضلال وهدى، بذلك كان محله شديد العناية من العلماء، بين التخصص الدقيق في العلم وبين احتياط الشريعة لضبط الجدل.

وقد حفل التاريخ بجماعات منهم، ألفوا في هذا العلم الجليل بإفراد أو تضمن .

سيتضمن البحث بإذن الله لفيفاً منهم كنماذج ولايسعني استقصاءهم ولاتتبع آثارهم ولوسودت بذلك ما معي من الصحائف بكل ما معي من المحابر.

* * *

المبحث الأول

أهمية الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب

الملكة النقدية في الجدل الديني هي من أهم مقومات التأليف والمناظرة، بل هي المدخل لمفاصل علم مقارنة الأديان [١]، بفروعه من الدراسات الدينية، ومناهجها النقدية .

و إذا كانت القاعدة الشرعية المعروفة تنص على أن الأمور بمقاصدها[٢]، فاكتساب الأدوات اللازمة لوصول الاحتكاك العلمي السليم مع المخالف في الديانة مقوم ضروري لبلوغ مقصد من يدلي بتلك المعلومة .

ومنذ صدر الإسلام إبان بداية احتكاك النصارى بالمسلمين، لم يزل الجدل الديني ماثلاً في مناطق الاحتكاك مع النصارى .

وكلما اقتربت مناطق الاحتكاك زادت حركة الجدل والمناظرة و التآليف وغيرها من الجانبين.

وأول احتكاك دونه التاريخ الإسلامي مع النصارى هو قصة نصارى نجران، حيث أنزل الله تعالى في كتابه الكريم عنها آيات تتلى إلى يوم القيامة في سورة آل عمران .

ثم تتابع الاحتكاك غير المترجم إلى مصنفات علمية، وبقي ثمَّ مواقف سجلها التاريخ وضمنها ثنايا صفحته، إلى أن بدأت الحركة العلمية المتبادلة بالتصنيف والمناظرة، وليس من نافلة القول أن المنهج الذي يعتمد على منهج علمي دقيق يستمد معلوماته التي يخضعها للنقد من المصادر الأصيلة لكل ديانة وليس من الأوهام والتخيلات أو الخزعبلات حتى صار هذا العلم أمارة لعلوم المسلمين في مقارنة الأديان وصار ملهماً فيما بعد ذلك للغرب في اعتماد المنهج العلمي في المقارنة الدينية[٣].

---

(١) علم مقارنة الأديان هو بالنسبة للغرب هو علم يقوم على بحث محايد يقدم البيانات الدينية ويتحقق منها، وبالنسبة للمسلمين يكشف للباحثين مدى التناقض والزيف في العقائد غير الإسلامية ينظر: ص ٥٩٢، رزهيلنيس، جون، معجم الأديان، ترجمة هاشم أحمد محمد، مراجعة عبدالرحمن الشيخ، ط١، ٢٠١٠م، المركز القومي للترجمة، جامعة القاهرة، و ينظر: الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق للمستشار محمد عزت الطهطاوي .

(٢) شرح القواعد الفقهية، المؤلف: أحمد بن الشيخ محمد الزرقا [١٢٨٥هـ - ١٣٥٧هـ]
صححه وعلق عليه: مصطفى أحمد الزرقا، الناشر: دار القلم - دمشق / سوريا، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٣) ينظر تسلسل التوثيق والتأليف لدى علماء المسلمين عند محمد دراز في كتابه الدين ص ١٨ ط هنداوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

فكتب علي بن ربن الطبري كتابه : «الدين والدولة»[١]، وللأهمية بمكان في المكتبة العلمية النقدية للدراسات الإسلامية، حيث إن مؤلفه رجلٌ أسلم وكان نصرانياً، ولديه علم من أهل الكتاب، واستخدم منهجاً فريداً، في المقارنة والاستقصاء للنصوص .

واستعرض في كتابه دلائل نبوة النبي ﷺ، مع عرض وجيز للسيرة وتاريخ الصحابة، ثم ربط دلائل النبوة بآيات الأنبياء السابقين، وفي الأخير رد بعد التقرير على جملة من الشبهات التي أثارها النصارى على المسلمين .

ثم أشير إلى أن الجاحظ رسم كتاب : المختار في الرد على النصارى، الذي يعتبر من أول ما دون في هذا الاحتكاك العلمي غير المسبوق بين المسلمين والنصارى [٢] .

وفيه مسائل دقيقة تعرض لها الجاحظ بدقة وقد يكون أول من تعرض لها من المؤلفين المسلمين، مثل انتباهه لغموض قول النصارى في المسيح عليه السلام [٣]

تطور الجدل الديني، فكلما طور النصارى أدواتهم في الجدل، قابل ذلك حركة علمية ضخمة في المقابل من المسلمين، فالأدوات التي استخدمها نصارى الفتوحات ليست مثل الأدوات التي تعاطاها نصارى القرن التاسع عشر والعشرين، من المناهج، وفي المقابل نجد أن علماء المسلمين يستخدمون ذات الأدوات ويستخدمون ذات المنهج ثم يطبقونه على المخالف مع تصحيح المفهوم وتعديل القياس إلى الأداء السليم لتخرج النتيجة ذاتها سليمة .

وهذا يبرز أهمية الملكة النقدية في الجدل، فهي الأداة الفاعلة في كل من المناظرة والتأليف في الرد والنقض، وهي الآلة العقلية التي يعالج بها العالم أو الباحث الكمية الهائلة من المعلومات التي تراكمت

---

(١) إثبات نبوة النبي محمد ﷺ للطبري، وهو: علي بن رين الطبري الطبيب ت ٢٤٧ هـ، في ترجمته أنه فاضل فِي صناعة الطب وَقَدْ كَانَ بطبرستان يتصرف فِي خدمة ولاتها ويقرأ علم الحكمة . اسلم عَلَى يد المعتصم قربه وظهر بالحضرة فضله وأدخله المتوكل فِي جملة ندمائه. ينظر: أخبار العلماء بأخيار الحكماء (١ / ١٠١) .

(٢) المختار في الرد على النصارى عمرو بن بحر الجاحظ، ينظر للتعريف بالكتاب وطبعاته مقدمة د.محمد الشرقاوي نشر: دار الجيل – مكتبة الزهراء ١٩٩١ م، والجاحظ هو أبو عثمان عمرو بن بحر، صاحب التصانيف المشهورة، وكان كثير الهزل، نادر النادرة، خالط الخلفاء ونادمهم، أخذ العلم عن النظام المتكلم وصنف الجاحظ كتباً كثيرة منها: كتاب البيان والتبيين، جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وكتاب الحيوان . انظر: المختصر في أخبار البشر (١ / ١٧٩) .

(٣) ينظر المصدر السابق ص ٢٢، ومحقق الكتاب الدكتور محمد الشرقاوي هو من ذكر هذه اللطيفة أن الجاحظ قد يكون أول من ذكرها من العلماء المسلمين، والدكتور الشرقاوي هو أستاذ الأديان المقارن في جامعة القاهرة ترأس قسم الفلسفة فيها، وله مجموعة من المؤلفات المتخصصة في الأديان والفلسفة منها كتابه بحوث ودراسات في مقارنة الأديان وتاريخها ومنها كتبه محل النقل أعلاه وهو تحقيق كتاب إفحام اليهود للسموأل .

خلال مئات القرون، ثم صفت في بنيان واحد، فالناقد نافذ البصيرة يرى الخلل في الأساس، ويرى الخلل في البنيـة، ويـرى الخلل في التركيبـة الرابطة، ويرى مواضع القوة في المبنى، بما أورثتـه الملكة من موهبة الدقة، وسرعة الملاحظة، وقلب للدليل، ومعرفة الاجتزاء السياقات.

تبرز أهمية الملكة النقدية في الجدل مع أهل الكتاب من زوايا كثيرة تدور حول وصول المعلومة بحد ذاتها دون شائبة مؤثرة عليها، سواءً أكان دافع الشائبة تشويشاً محضاً أو خالطها ظروف الطرح أو زاوية التناول، بحيث أثرت العوامـل المصاحبة لفحص النص إلى تأثير على الطرح النقي للنقد فحيزت المسـتمع أو المتحدث أو حتى أثرت على مساق النص نفسه .

كمـا أن ذات الملكـة تنمـى مع طول المعالجة للمعلومة مع وجود الاسـتعداد المسـبق سـواءً سـمي فطرة أو ذكاء أو اهتماماً، إذا هما مطردان، كلما زاد أحدهما نمى الآخر وتبارك .

والعلماء الراسـخون ربوا ملكاتهم على العلم، الذي هو مبنى الجدال الحق، فالجدال بغير علم يفضي إلى الجهـل، إذا فاقـد الشـيء لا يعطيه، ويفضي إلى الفوضى الجدلية التـي لا تهدف إلا إلى الجدل المذموم بحد ذاته، دون أن تحق حقاً او تبطل باطلاً، قال الله تعالى : ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّـونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عِمْرَان الآية ٦٦] ويخرج من هذا الحرز أمران :

الأول : عدم الجدال عن الجهل، والثاني : عدم جدال الجاهل، وكلاهما منهي عنه .

وأهميـة الملكـة هنـا هو سـرعة البديهـة في تمييز المجـادل من طالب الحـق، إذ قد يكون بينهمـا فرق دقيق لا يدركه المبتديء بسهولة، فيجره المجادل بسبب عدم خبرته، أو يعرض هو عن طالب الحق ظناً أنه مجادل .

وثمة أهمية للملكة تتفرع عن هذه، وهي أن الحاذق من المجادلين، لا ينخرط في جدال يورث غير العلم، فإن خمن أن ذلك الجدل يورث الشبهة أو الجهل أو غير ذلك، فلا يجعل نفسه مطية لها .

قال ابن تيمية [١] : «ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع أو الذي يضر المستمع وعن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء فلا تفيد علما ولا ديناً»[٢].

---

(١) أحمـد بـن عبـد الحليـم بن عبد السـلام بن تيمية ت ٧٢٨هـ: عالم محقـق، تصانيفه تزيد على ثلاثمائـة مجلد، تفقه على مذهـب الإمـام أحمـد، رفعـت به السـنة، وقمعت البدعـة، ولد في حران وتوفي في دمشـق . ينظـر: ذيل تاريخ الإسـلام [القطعة المفردة تحقيقاً، والمحتوية على ترجمة شيخ الإسلام والشرف البرزالي، والحافظ المزي] والمطبوعة تحت اسم : ثلاث تراجم نفيسة – ط١-١٤١٥هـ- بتحقيق محمد بن ناصر العجمي – دار ابن الأثير- الكويت – الجهراء (١٩-٣١)، والذيل على طبقات الحنابلة (٣٢٠\٢ – ٣٣٧)، و شذرات الذهب (٨٠\٣-٨٦) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٣ / ٣٧٤)

ولنبـي الله ﷺ مواقـف كثيرة مع اليهـود والنصارى تتجلى فيها أطروضوابط صقـل تلك الملكة النقدية، وتتبين فيها متى يسـوغ الجدل ومتى ينهى عنه، وكيف يكون بالغ النفع وكيف يكون بالغ الضرر، وفي حديث ثوبان رضي الله عنه [1] قَالَ : «كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ لِمَ تَدْفَعُنِي فَقُلْتُ أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي فَقَالَ الْيَهُودِيُّ جِئْتُ أَسْأَلُكَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ قَالَ أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ فَقَالَ سَلْ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إِبْرَاهِيم الآية ٤٨] فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ قَالَ فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً قَالَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ قَالَ الْيَهُودِيُّ فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَالَ زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ قَالَ فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا قَالَ يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا قَالَ فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ قَالَ مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا قَالَ صَدَقْتَ قَالَ وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ قَالَ يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ قَالَ أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ قَالَ جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ الْوَلَدِ قَالَ مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ قَالَ الْيَهُودِيُّ لَقَدْ صَدَقْتَ وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنْ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ»[2] .

وهـو حديـث عظيـم يضبـط الجدل مع اليهـود، ففي بدايته شـرط النبي ﷺ لـه النفع لإخباره، ومن شـدة ضلالـه حـاد عن قبول الشـرط إلى كونه يسـمع الحق بأذنه، ويـدل على ذلك أنه قال فـي الأخير صدقت وإنك لنبي، ولم يؤمن به ولم يصدقه كما ذكر ذلك الشراح [3] .

---

(١) قال ابن سـعد : « يذكرون أنه من حمير أصابه سـبا فاشـتراه رسـول الله ﷺ فأعتقه فلم يزل مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى قُبِضَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ فتحول إلى الشـام فنزل حمص وله بها دار صدقة. ومات بها سـنة أربع وخمسـين في خلافة معاوية رضي الله عنـه» الطبقـات الكبـرى(٧ / ٢٨١) . الطبقـات الكبـرى، محمد بن سـعد البغدادي المعروف بابن سـعد (المتوفـى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ عام ١٤١٠هـ

(٢) رواه مسلم (٢ / ١٩٠)

(٣) ينظر: المفهم لما أشـكل من تلخيص كتاب مسـلم (١/ ٥٧٤) وما بعدها، والكتاب لأبي حفص عُمر بن إبراهيم الحافظ، الأنصاري القرطبي، تحقيق وتعليق محيي الدين ديب ميسـتو– أحمد محمد السـيد – يوسـف علي بديوي – محمود إبراهيم بزال، نشر دار ابن كثير، دمشق – بيروت) ط١، ١٤١٧هـ

وقد ذكر ابن القيم [١] رحمه الله أحداثاً لمناظرة خاصة حصلت مع رجل من أهل الكتاب يبدو أنه يهودي، يشنع على مسبة النصارى لله، فاختار ابن القيم المثال المضروب وسلكه للقياس، فانتهت بإقرار الرجل بالإسلام ونبوة النبي ﷺ، بعيداً عن الجدل الطويل، بسبب أخذ ابن القيم بملكته المصقولة ما قد لا يستطيعه من لا يمتلكها، وهذا يدل على الملكة الراسخة في الجدل، يقول : قريب من هذه المناظرة ما جرى لي مع بعض علماء أهل الكتاب فإنه جمعني و إياه مجلس خلوة أفضى بيننا الكلام إلى أن جرى ذكر مسبة النصارى لرب العالمين مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، فقلت له : وأنتم بإنكاركم نبوة محمد ﷺ قد سببتم الرب تعالى أعظم مسبة، قال : وكيف ذلك قلت لأنكم تزعمون أن محمداً ﷺ ملك ظالم ليس برسول صادق، وأنه خرج يستعرض الناس بسيفه فيستبيح أموالهم ونساءهم وذراريهم ولايقتصر على ذلك ؛ حتى يكذب على الله ويقول الله أمرني بهذا وأباحه لي ولم يأمره الله ولاأباح له ذلك ويقول أوحى إلي ولم يوح إليه شيء وينسخ شرائع الأنبياء من عنده ويبطل منها ما يشاء ويبقي منها ما يشاء وينسب ذلك كله إلى الله ويقتل أولياءه وأتباع رسله ويسترق نساءهم وذرياتهم فإما أن يكون الله سبحانه رائيا لذلك كله عالما به مطلعا عليه أو لا ؟

فإن قلتم إن ذلك بغير علمه واطلاعه نسبتموه إلى الجهل والغباوة وذلك من أقبح السب و إن كان عالما به رائياً له مشاهدا لما يفعله فإما أن يقدر على الأخذ على يديه ومنعه من ذلك أو لا «ثم أخذ ابن القيم يلزمه بالنتائج المقدمات، وعواقب لزوم الضلال إلى أن ألان قلبه».

ثم قال ابن القيم : « فأخذ الكلام منه مأخذا ظهر عليه وقال حاش لله أن نقول فيه هذه المقالة بل هو نبي صادق كل من اتبعه فهو سعيد وكل منصف منا يقر بذلك ويقول أتباعه سعداء في الدارين»[٢].

* * *

(١) محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن قيم الجوزية، أحد علماء الحنابلة وأشهر تلاميذ ابن تيمية رحمهما الله، فقيه أصولي مفسر محدث، واسع الاطلاع، لطيف الإشارة، له مصنفات مفيدة مما يتعلق منها بالأديان هداية الحيارى، وأشهرها زاد المعاد في هدي خير العباد . ينظر: معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت (٩ / ١٠٧) .

(٢) الصواعق المرسلة – (١ / ٣٢٧–٣٢٩)

المبحث الثاني

ضوابط الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب

للملكة النقدية في الجدل الديني خاصة أثر كبير عند تقييدها بضوابط تحدها حتى تتحقق الغاية منها، وإذا كان للباحثين عادة في مداخل الفصول والأبواب والمباحث تعاريف تُمَهِد لما يدوَن، فإنه يحسن هنا تعريف الضابط بالأمر الكلي الذي يضبط جزئيات شتى في باب معين دون إشارة إلى مأخذه النصي [١].

وأهم تلك الضوابط المستنبطة مما ذكره المحققون من أهل العلم ما يلي :

١- أن تكون الملكة راسخة، وهذا يحرز ما لو كانت هشة أو ضعيفة أو مترددة، ويخرج من ذلك ما لوزل المناظر على غير عادته، كما أنه خوف الزلة يجب ألا يمنع من الجدل والمناظرة[٢]، وقد قرر ابن الوزير[٣] ﷺ : «أنّ العلماء ﷺ تركوا الذّبّ عن الحقّ خوفاً من كلام الخلق: لكانوا قد أضاعوا كثيراً، وخافوا حقيراً، وأكثر ما يخاف الخائض في ذلك أن يكل حسامه في معترك المناظرة وينبو، ويعثر جواده في مجال المحاجة ويكبو، فالأمر في ذلك قريب: إن أخطأ فمن الذي عُصم، وإن خُطىء فمن الذي ما وُصِم ؟».

والقاصد لوجه الله تعالى لا يخاف أن يُنقد عليه خلل في كلامه، ولا يهاب أن يُدل على بطلان قوله، بل يحبّ الحقّ من حيث أتَاه، ويقبل الهُدى ممن اهداه، بل المُخاشنة بالحقّ والنّصيحة، أحبّ إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة، وصديقك من صَدَقك لا من صدّقك «

وكذلك مثاله ما ذكره القرطبي[٤] ﷺ أثناء إحدى مناظراته فقال: «وإنما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ليتبين تناقض الخصم وتحكمه

---

(١) ينظر: الأشباه والنظائر في قواعد الفقه (١/ ٣٤) لسراج الدين أبو حفص عمر الأنصاري المعروف بابن الملقن، تحقيق مصطفى الأزهري، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م .

(٢) الروض الباسم لابن الوزير– (١ / ٧٧)

(٣) محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، مجتهد باحث، من أعيان اليمن له كتب نفائس، منها « إيثار الحق على الخلق والعواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم ومختصره «الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم». ينظر: الأعلام للزركلي – (٥ / ٣٠٠) .

(٤) محمد بن أحمد بن أبي بكر، شمس الدين القرطبي المالكي ت ٦٧١ هـ له من المصنفات الكتب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. الأعلام بما في دين النصارى وإظهار محاسن دين الإسلام . ينظر: هدية العارفين – (٢ / ١٣) .

للعباد وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل بحول الله[١]، وهو بذلك يميز بين ما يفعله أهل النظر والحذق في التسليم بالفساد على وجه المناظرة لا الإقرار، وهم حذاق في ذلك ليبينوا للخصم فساد قوله».

٢- أن تتكرر وتمارسها النفس، وهذا يخرج به عن الحالات المفردة في المرة والمرتين، فلا عبرة بغير التكرار، ولذلك حذق بعض أهل العلم في معرفة من يناظر ومن لا يناظر بحسب خبرتهم في معرفة من تجري معه المجادلة بالتي هي أحسن، قال أبو بكر بن العربي المالكي ﷺ عن بعض الفرق الباطنية الكافرة بعد أن نقل قولهم : « كفر بارد لا تسخنه إلا حرارة السيف، فأما دفء المناظرة فلا يؤثر فيه «[٢] .

٣- أن يكون الاستعداد العقلي حاضراً فيها، ويخرج من ذلك ما كان استعداده دعوى من غير العقل، كالروحانيات أو دعوى الإلهام، أو وحي الأنبياء، ومع الملكة يفطن الحاذق لما قد لا يبدو لغيره من السبر والتقسيم، كما يفطن صاحبها إلى الحيدة من طلب الحق إلى الجدال بالباطل، ولذا قال ابن حزم ﷺ : «فمن تمادى بعد هذا الجواب الكافي فإنما غرضه التشنيع فقط والتمويه وهذان من دلائل العجز عن المناظرة والانقطاع»[٣]

إذ السبر واستنباط المعلومة بدقة سريعاً للحاذقين لها، قال القرطبي رحمه الله في إحدى جدلياته مع النصارى : «لو أنصفت في القضية وعدلت بالسوية لقلت أن الناس قسمان قسم إيمانهم برهاني وقسم اعتقادهم تقليدي هكذا ظهر من أمر أهل الأديان وأما من لم يتدين بدين فينبغي ألا يعد في الموحدين»[٤].

٤- أن تكون مصاحبة للنقد ومعينة له، لاستخراج الصحيح من الزائف، وهذا يحرز يخرج به ممن سلط الملكة على الجدل لذاته، أو لغير استخراج الصحيح مثل الممارسات العقلية المحضة غير ذات الثمرة .

وقد ذكر ابن الوزير أنه في النسخة المطولة من كتابه أنه كان يورد الحجج ويستكثر منها مستخرجاً إياها من غير مظانها، حتى يتيقن خصم المخالف، وهذه مهارة في دقيق المسائل التي يطغى فيها الخصوم، قال رحمه الله : «ربما كانت المسألة في كتب العلماء ﷺ مذكورة غير محتج عليها بأكثر من حجة واحدة فأحتج عليها بعشر حجج، وتارة بعشرين حجة، وتارة بثلاثين حجة، وكذلك قد يتعنّت صاحب الرسالة، ويُظهر العجب بما قاله، فأحبّ أن يُظهر له ضعف اختياره، وعظيم اغتراره، فأستكثر من إيراد الإشكالات عليه، حتّى يتضح له خروج الحقّ من يديه، فربما أوردت عليه في بعض المسائل أكثر من مئتي إشكال، على مقدار نصف ورقة من كتابه»[٥] .

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى - (١ / ١٥٠)
(٢) العواصم من القواصم - (١ / ٢٥٩)
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل - (٢ / ١٣٩)
(٤) الإعلام بما في دين النصارى - (١ / ١٦٩) .
(٥) الروض الباسم لابن الوزير - (١ / ٧٨) .

٥- أن تمنع تلك الملكة تحول ساحة المناظرة إلى جدل عقيم فالجدل لا يورث علماً ولايكسب فائدة، بل يوغر الصدور، وإذا صحبه من المقدمات العقلية والكلامية ما يزيد الطين بلة كان ذلك أدهى وأمر، ولذا كان من العلماء الذين لهم قولان في المناظرة في - علم الكلام خاصة- أبوحنيفة ﷺ، إذ تغيررأيه في آخرعمره في المناظرة كما نقل عنه، وقد يكون لهذا الوجه، لما رآى «كان يجوّز تعليمه وتعلّمه والتصنيف فيه ولكن في آخرعمره امتنع عن المناظرة فيه ونهى أصحابه عن المناظرة فيه»[١] وقد يكون ذلك راجعاً لعلمه عن خروجه من الثمرة أو دخوله إلى الجدل المذموم أو شيئاً من ذلك، وهذا وإن كان في علم الكلام، إلا أنه في مناظرات أهل الكتاب من بابٍ أولى .

٦- ألا يغضب من ذكرالحق، ولايجعل الغلبة عليه في الحق مثلمة، فالأئمة الكبار، الذين يعتد بعلمهم وفقههم لم يعتبروا المناظرة سوى وسيلة للمعرفة، ويبتعدون بها عن شخصنة الأمور« كان أبوحنيفة ﷺ منصفاً من نفسه، وكان طويل الصمت، وكان لا يتكلم إلا أن يُسْأَل، وكان لا يغضب في المناظرة في العلم»[٢] .

٧- أن يدرك صاحب الملكة السوية ما لا يغيب عن أهل النظرمن بدهيات الجدل المحمود، ولذا جادل بهذه المقدمات شمس الدين القرطبي بعض أهل الكتاب فقال: «ما حقيقة المناظرة ؟ وما شروطها ؟ وكم هي؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة ؟ وما حقيقة الدليل ؟ وكم أقسامه ؟ وكم شروطه ؟ وما وجه الدليل ؟ وما المدلول؟ وكم أقسامه؟فإن كنت تدعى المناظرة فأجبنا عن هذه الأسئلة»[٣] .

وكأنه أدرك أن هذا مما يتفق عليه أهل قواعد الجدل عنده، وألمح من ذلك أن أبا الحسن يستجهل هذا المناظر، وهويبين لمن اطلع على أحداثه الجدل بينهما أن ثمة جهل بالبدهيات عند المجادِل .

٨- أن تحمله الملكة على التفريق بين التنظيرأو التقعيد أو التأصيل وما قد يقوله المناظرعلى سبيل التنزل أثناء المناظرة أو الجدل .

ودافع هذا الضابط «أن الإنسان بشروله حالات نفسية وخارجية توجب الذهول عن اللازم فقد يغفل أو يسهو أو ينغلق فكره أو يقول القول في مضايق المناظرات من غيرتفكيرفي لوازمه ونحوذلك»[٤] .

٩- عدم عزل الفكرأثناء الجدل عن الواقع، وذلك لأن : «الخطاب الفكري النصراني لا يبتعد عن الصراع السياسي والاجتماعي، بل تجده أحيانا يمهد له، وأحيانا أخرى يواكبه ويصاحبه، وذلك مع كل انكسار سياسي أو عسكري أو اجتماعي تتعرض له الأمة» وصاحب الملكة يدرك ذلك جيداً، وإذا صاحب خطاب المناظرة شيئاً من إنزاله على معنى معين، يحيد به نحوواقع سياسي أو اجتماعي، يجب أن يعيد الأمور إلى نصابها بما يملكه من حذق ومهارة

(١) أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة - (١ / ٥٨٨) .
(٢) الاعتقاد - صاعد النيسابوري - (١ / ١٥٧) .
(٣) الإعلام بما في دين النصارى - (١ / ١٧١) .
(٤) المجلي شرح القواعد المثلى - (٧ / ٦) .

وملكة تفكير»[١]، وهذا مثاله لو ربط انحسار قوة المسلمين ببطلان القرآن أو قوة النصارى بأنهم على حق أو غير ذلك مما هو معلوم من الربط الفاسد الذي لاعلاقة لهم بالحق في ذاته وإنما هو محاولة لإنزال النصوص على غير واقعها .

١٠- أن يحذر من مفسدات ثمرة الجدل، خاصة فيما يتعلق بالجانب الأدبي والمقاصدي منها، والذي يتعلق بحسن التعامل مع الخلق، ويتعلق بسوء القصد في الجدل، وأخطرها هو مجرد قصد تخطئة المناظر لأجل التخطئة لذاتها، وقد روى الآجري عن محمد بن الحسين كلاماً حسناً في هذا الباب فقال : «قد كثر في الناس جدا في أهل العلم والفقه في كل بلد يناظر الرجل الرجل يريد مغالبته، ويعلو صوته، والاستظهار عليه بالاحتجاج، فيحمر لذلك وجهه، وتنتفخ أوداجه، ويعلو صوته، وكل واحد منهما يحب أن يخطئ صاحبه، وهذا المراد من كل واحد منهما خطأ عظيم، لا يحمد عواقبه ولا يحمده العلماء من العقلاء ؛ لأن مرادك أن يخطئ مناظرك : خطأ منك، ومعصية عظيمة، ومراده أن تخطئ خطأ منه ومعصية، فمتى يسلم الجميع ؟ إلى أن قال : فإذا لم تجر المناظرة على المناصحة، فالسكوت أسلم، قد عرفت ما عندك وما عنده، وعرف ما عنده وما عندك، والسلام ثم لا نأمن أن يقول لك في مناظرته: قال رسول الله ﷺ، فتقول له : هذا حديث ضعيف، أو تقول : لم يقله النبي ﷺ كل ذلك، لترد قوله، وهذا عظيم، وكذلك يقول لك أيضاً، فكل واحد منكما يرد حجة صاحبه بالمخارقة والمغالبة وهذا موجود في كثير ممن رأينا يناظر ويجادل ونتجادل، حتى ربما خرق بعضهم على بعض هذا الذي خافه النبي ﷺ على أمته، وكرهه العلماء ممن تقدم والله أعلم»[٢].

١١- أن تمكن الملكة صاحبها من اتخاذ القرار الصائب في المضي أو الامتناع عن المناظرة إذ البصيرة النافذة تمنعه أو تمضيه، قال ابن تيمية:»نهوا عن المناظرة من لا يقوم بواجبها أو مع من لا يكون في مناظرته مصلحة راجحة أو فيها مفسدة راجحة فهذه أمور عارضة تختلف باختلاف الأحوال، وأما جنس المناظرة بالحق فقد تكون واجبة تارة ومستحبة أخرى وفي الجملة جنس المناظرة والمجادلة فيها محمود ومذموم ومفسدة ومصلحة وحق وباطل»[٣] .

ولا يمكن لمن لم يمتلك تلك الملكة أن يقدر الأمور بالشكل الذي يجب أن تسير عليها ما لم يكن ذا خبرة طويلة مع علم عمق مع سعة اطلاع على أحوال الجدل، مع سرعة البديهة التي تحمله على لمح ما يسوغ في وقته .

١٢- أن يميز بين المنهي والواجب في الجدل، بحسب عواقب الأمور التي يجب تقديرها مسبقاً، وقد بين ابن تيمية رحمه الله ما يسوغ من ذلك فقال - وهو صاحب الباع الطويل في المناظرات : «أما جنس النظر والمناظرة فهذا لم ينه السلف عنه مطلقا بل هذا إذا كان حقا يكون مأمورا به تارة ومنهيا عنه أخرى كغيره من أنواع الكلام الصدق فقد ينهى عن الكلام الذي لا يفهمه المستمع أو الذي يضر المستمع وعن المناظرات التي تورث شبهات وأهواء

(١) المسيح عليه السلام دراسة سلفية - (٢ / ٥٢)
(٢) الشريعة للآجري - (١ / ١٥٠)
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧ / ١٧٤)

فلا تفيد علماً ولا ديناً»[١].

١٣- الحاذقون من نظار المسلمين، يناظرون على طريقة التنزل مع الحذر من عوارض الكلام أن تحمل على غير محلها أو أن يؤخذ التنزل عقيدةً عنهم، وهذه الطريقة قد يسلكونها لقطع دابر العناد وإنهاء الجدل المذموم، قال شمس الدين القرطبي ﷺ: «كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ليتبين تناقض الخصم وتحكمه للعباد وكذلك نفعل نحن»[٢].

١٤- أن يكون مردّ المَلَكَة وموجهها هو النصح لله ورسوله على منهاج النبوة، ولذلك تجد من كلام العلماء ما يهذب النفوس في هذا الباب مع إجازتهم للجدل المحمود، والعلم الجدلي له طغيان قد يدفع بالنفس إلى مجرد المغالبة، ولذلك يجب ردها إلى النصح، ومن كلام السلف في هذا الباب ما نقله الآجري ﷺ عن محمد بن الحسين قال: «يقول له على جهة البيان والنصيحة: حجتنا فيه قال الله تعالى كذا، وقال النبي ﷺ، على جهة النصيحة والبيان، لا على جهة المماراة، فمن كان هكذا، ولم يرد المغالبة، ولا أن يخطئ خصمه ويستظهر عليه سلم، وقبل إن شاء الله تعالى كما ذكرنا في الباب الذي قبله قال الحسن: المؤمن لا يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله، فإن قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله ﷻ وعلا وبعد هذا فأكره الجدال والمراء ورفع الصوت في المناظرة في الفقه إلا على الوقار والسكينة الحسنة»[٣].

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل - (٧ / ١٨٤)
(٢) الإعلام بما في دين النصارى - (١ / ١٥٠)
(٣) الشريعة للآجري - (١ / ١٦٠)

المبحث الثالث

ثمرات الملكة النقدية في الجدل الديني مع أهل الكتاب

إذا كان ما سبق في المباحث من ضبط الملكة، تحقق به مجموعة من ثمراتها ،وهذا قد يكون جملة مما ذكره العلماء ،منها :

أولاً: تحقيق الانتفاع من العلم، وذلك بعد أن تتوجه المناظرة والجدل إلى السامع بقدر توجهها إلى المناظر، وهذا الملحظ الدقيق انتبه له ابن الوزير فاختصر كتابه «الروض الباسم» لذلك : « فوجدت ما فيه من التطويل والتدقيق، يصرف الأكثرين عن التأمل له والتحقيق، لا سيمّا والباعث لداعية النشاط إلى معرفة مثل هذا إنما هو وجود من يعارض أهل السنّة، ويورد على ضعفائهم الشّبه الدّقيقة، ومن عوفي من هذا ربما نفر عن مطالعة هذه الكتب نفرة الصّحيح عن شرب الأدوية النّافعة، وألم المكاوي الموجعة « [1]

ثم قال بعد ذلك: «قد اقتصرت في هذا (المختصر) على نصرة السّنن النّبويّة، والذّبّ عنها وعن أهلها من حملة الأخبار المصطفوية، سالكاً من ذلك في محجّة جليّة، غير عويصة ولا خفيّة، وتركت التعمّق في الدّقائق، والتقحّم في المضايق، رجاء أن ينتفع بهذا المختصر المبتدي والمنتهي، والأثري والنّظري، وسمّيته: «الروض الباسم، في الذّبّ عن سنّة أبي القاسم ﷺ، وجعلنا من جيران حِماه المحرّم»[2]

الثاني : إبعاد ساحة الجدل والمناظرة عن الخروج بلا ثمرة .

وقد قعد العلماء في ذلك كثيراً، ولهم فوائد جمة في فصل الجدل المذموم عن المحمود .

وأصحاب الملكة ينتبهون لتلك الخلة سريعاً، ويحيدون من لا يقر بأبجديات المقدمات الضرورية مباشرة، ويلمحون من ذلك الفرق بين المعاند والمتبع للحق المستجلي له .

قال ابن تيمية : «إن الأمم كلهم متفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدمات معروفة بينة بنفسها ضرورية وجحدها الخصم كان سوفسطائياً ولم يؤمر بمناظرته بعد ذلك بل إن كان فاسد العقل داووه وإن كان عاجزا عن معرفة الحق ولا مضرة فيه تركوه وإن كان مستحقا للعقاب عاقبوه مع القدرة»[3].

---

(١) الروض الباسم لابن الوزير- (١ / ٧٨)

(٢) الروض الباسم لابن الوزير- (١ / ٧٩)

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧ / ١٧٤)

ذكر ابن الوزير ما يبطله أهل السنة من الحجاج، وبين أنه نوعان : «أحدهما: ما كان متوقفاً على المراء و اللّجاج الذي لا يفيد اليقين، ويثير الشّرّ، وثانيهما : الانتصار للحقّ بالخوض في أمور يستلزم الخوض فيها الشكوك والحيرة والبدعة لما في تلك الأمور من الكلام بغير علم في محار العقول ومواقفها»[١].

الثالث : تهب الملكة للمناظر حدساً في تبين حال المعاند من طالب الحق، ويسهل عليه تمييزه، قال ابن حزم ﷺ: «وأما العناد فقد شاهدناه من كل ما رأيناه في المناظرة في الدين وفي المعاملات في الدنيا أكثر من أن يحصى ممن يعلم الحق يقينا ويكابر على خلافه ونعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهدى والعصمة»[٢].

ويصعب خداع ذي الملكة الحاذقة وإن كان القول منمقاً ؛ بل ولو توهم ذلك القائل في مقاله، قال شمس الدين القرطبي لرجل – من أهل الكتاب – حاول التلبيس على العامة: «إنك عبرت عن سوء مناظرتك ونظرت بركيك مقالك فجهلت حتى توهمت أنك من أهل النظر وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر»[٣].

الرابع : الملكة توقف الباحث عن الحق عن ضلاله، إذا كان المناظر ذا ملكة صائبة، قال أحمد ديدات رحمه الله: «سألت عمالقة علماء المسيحية أن يخبروني ما إذا كان قول (الإنجيل على لسان المسيح عليه السلام) «الروح ليس لها لحم ولا عظام « يعني أن للروح لحماً وعظاماً في لغتهم ! وفي مناظرات كنت طرفاً فيها لم يجرؤ أي خصم من خصوم المناظرة أن يتعامل مع السؤال . كما لو كانوا يتظاهرون بأن كلمات السؤال لم تقل ولم ينطق بها أحد»[٤].

وهذا كلام لطيف دقيق، أخبر فيه عن تساؤل عميق، يتوقف على الجواب عليه قلب الاعتقاد برمته عن الروح، ومسألة اللحم والعظم فيها، ثم من دقيق فهمه بين أنهم لم يجيبوا نهائياً، بسبب أن الجواب مصيبة، والسكوت أعظم !

الرابع: تمكن الملكة صاحبها من تغيير أسلوبه الجدلي إذا لمح عدم جدواه مع المخالف إلى أسلوب أكثر فاعلية أو أدق نتيجة ،وهذا ما لمحه السموأل المغربي رحمه الله في كتاب اللطيف إفحام اليهود، فذكر في مقدمته ما يشير إلى تتبعه لما كان يحتج به بعض على اليهود، وبحكم خبرته السابقة و ملكته التي تربى عليها في علمه اليهودي أولاً ثم بطلبه علم الشرع الحنيف ثانياً غير طريقة الجدل إلى ما يناسب المجادَل فقال : «أكثر ما نوظروا به يكادون لا يفهمونه أو لا يلتزمونه وقد جعل إلى إفحامهم طريقا مما يتداولونه في أيديهم

(١) الروض الباسم لابن الوزير– (٢ / ٢١٩)
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل – (٥ / ٧٤)
(٣) الإعلام بما في دين النصارى – (١ / ١٧٠)
(٤) مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والإفتراء – (١ / ٦١)

من نص تنزيلهم وأعماهم الله عنه عند تبديلهم ليكون حجة عليهم موجودة في أيديهم»[١].

الخامس: يدرك صاحب الملكة الفرق بين الدعوى العامة وبين كيفية تحقيقها على الواقع، وهذا ما تميز به ابن حزم رحمه الله، فهو يميل إلى تفكيك الادعاء أثناء المناظرة والجدل، ويلمح ذلك من قوله في مقدمة كتابه الفصل: «النصارى وإن كانوا أهل كتاب ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجردا بل يقولون بالتثليث»[٢]

السادس: يدرك صاحب الملكة مآلات الأمور ببصيرة قد لايدركها غيره ومن ذلك ما لمحه السموأل من سبب التشديد على اليهود في دينهم وإدراكه لكيفية حصول ذلك بالتدرج من خلال معرفته العميقة بأحول المجتمع وكيفية تلقى المعلومة، فقال: «اليهود مبددون في شرق البلاد وغربها فما من جماعة منهم في بلدة إلا إذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهرلهم الخشونة في دينه والمبالغة في التورع والاحتياط فإن كان من المتفقهة فهو يشرع في إنكار أشياء عليهم ويوهمهم التنزه عما هم فيه وينسبهم إلى قلة الدين وينسب ما ينكره عليهم إلى مشائخه وأهل بلده ويكون في أكثر ذلك الإسناد كاذباً.

ويكون قصده بذلك إما الرئاسة عليهم وإما تحصيل غرض منهم ولاسيما إن أراد المقام بينهم أو التدبير بينهم فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم ولامن ذبائحهم ويتأمل سكين ذباحهم وينكرعليهم بعض أمرهم ويقول أنا لا آكل إلا من ذباحة يدي، فتراهم معه في عذاب لا يزال ينكرعليهم الحلال والمباح ويوهمهم تحريمه «[٣].

السابع: من ثمرات الملكة أنها نمكن صاحبها مع كثرة الممارسة على القدرة على ضرب الأمثلة بالمحسوس لتبيين الحقيقية وتقريب المعنى وتنبيه الخصم، ومن ذلك ما ذكره ابن حزم في معرض رده على الصلب المزعوم في قصة وقعت لهم في معرض شرح قوله تعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ [النِّسَاء الآية ١٥٧] فقال: «وقد شاهدنا نحن مثل ذلك وذلك أننا أندرنا للجبل لحضور دفن المؤيد هشام بن الحكم المستنصر فرأيت أنا وغيري نعشاً فيه شخص مكفن وقد شاهد غسله شيخان جليلان حكيمان من حكام المسلمين ومن عدول القضاة في بيت، وخارج البيت أبي ﷺ وجماعة عظماء البلد ثم صلينا في ألوف من الناس عليه ثم لم يلبث شهوراً نحوالسبعة حتى ظهرحيا وبويع

(١) إفحام اليهود – (١ / ٨٦)
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل – (١ / ٤٧)
(٣) إفحام اليهود – (١ / ١٧٥)

بعد ذلك بالخلافة ودخلت عليه أنا وغيري وجلست بين يديه ورأيته وبقي ثلاثة أعوام غير شهرين وأيام»[١].

الثامن: تهب الملكة لصاحبها فهم قلب الدليل على المخالف، ويدرك صاحب الملكة الحاذقة أن حجة الخصم كثيراً ما تكون هي حجة عليه لا له، ولكن يحتاج إلى روية وطول تفكير وسرعة بديهة، ولذا ذكر ابن تيمية ﷺ عن بعض أهل البدع فيما يحتجون به على بدعهم من الكتاب والسنة أن تلك الأدلة «نفسها تدل على نقيض قولهم ولاتدل على قولهم فضلا عما يعترفون هم دلالته على نقيض قولهم وهكذا أيضا عامة ما يحتجون به من الأدلة العقلية إذا وصلت معهم فيها إلى آخر كلامهم وما يجيبون به معارضهم وجدت كلامهم في ذلك يدل على نقيض قولهم وأن ما يذكرونه من المناظرات العقلية هو على قول أهل الإثبات أدل منه على قولهم»[٢].

التاسع: تمنع الملكة صاحبها من الاندماج في عقيدة الآخر المناظر ولا يخدع في ذلك، بل يظل يكرر القواعد السليمة ويرد الأمر إليها، قال ﷺ الهندي: «لا نعتقد بمجرد استناد كتاب من الكتب إلى نبي أو حواري أنه إلهامي أو واجب التسليم، وكذلك لا نعتقد بمجرد ادعائهم بل نحتاج إلى دليل، ولذلك طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم، فقال: إن سبب فِقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلثمائة وثلاث عشرة سنة، وتفحصنا في كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن والتخمين، يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن، وقد قلت إن الظن في هذا الباب لا يغني شيئاً، فما دام لم يأتوا بدليل شاف وسند متصل فمجرد المنع يكفينا، وإيراد الدليل في ذمتهم لا في ذمتنا»[٣].

العاشر: أن صاحب الملكة الحاذقة يدرك الفرق بين الغلبة وذكر الحق، ولا يفعل ذلك لمجرد الانتصار لنفسه، فمن علماء المسلمين من أعرض عن بعض الإسهاب في المناظرات حتى لا يتقوى الطوائف الأضل على الطوائف الضالة، ومنهم القرطبي ﷺ، حيث قال: «اعلم يا هذا أنه لولا أننا نخاف أن نساعد اليهود على كفرهم وأن يحملهم ذلك على دوام الإصرار وزيادة العناد لنبهناهم على مواضع في هذه الأدلة التي ذكرت يفسد عليك لأجل ذلك أكثرها ويبطل عليكم الاحتجاج بها ولو فعلنا ذلك لما كان مما يقدح في صحة نبوة المسيح فإنها تثبت بطرق أخر».

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل – (١ / ٥٦)، وابن حزم يقصد أنهم أخرجوا للجبل للصلاة على رجل مكفن قيل لهم إنه هو هشام بن الحكم، ثم تبين بعد ذلك أنه ليس هو وأنها كانت قصة أشبه بالتلبيس لأمر ما كان في ذلك الوقت .

(٢) درء تعارض العقل والنقل – (٤ / ٢١٨)

(٣) إظهار الحق – (١ / ١١١)

وإنما يكون ذلك دليلا على أنك لا تحسن الإستدلال ولاتعرف طرق المناظرة والجدال ولكن حاشى لله أن أُعِيْن اليهود أولى اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة على من التزم شرعة المسيح وركب منها المنهج الصحيح»[1].

العاشر: توجه الملكة صاحبها لنقض المقدمات والعموميات، فتنهدم التفاصيل بعد ذلك، وهذا ما انتبه له الحذاق من أهلها، قال شمس الدين القرطبي ﷺ: «ولتعلم أيها الناظر في هذا الكتاب أن كل ما ذكره هذا القس في هذا الفصل إنما هو مبنى على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت وقد أبطلنا ذلك فيما تقدم حيث قلنا كلام الباري تبارك وتعالى ليس بصوت ولاحرف وإنما هو وصف له قائم به ليس بحرف ولاصوت كما نبهنا عليه، وإذا بطل ذلك بطل كل ما انتحله في هذا الفصل من الهذيان»[2].

* * *

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (١ / ١٧٨)

(٢) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام (١ / ١٥٠)

خاتمة

الحمد لله رب العالمين، انتهى هذا البحث، وقد حاولت فيها جاهداً أن أجمع ما تفرق من الدرر في كتب العلماء حول الملكة النقدية وأثرها، وقد حاولت استجلاء خلاصة نتائجه كما يأتي:

١. تبين أن الملكة هي ما اكتسبه العلماء من الاستعداد العقلي الخاص بسبب طول المعالجة وهبة الموهبة ومحلها استخراج الصحيح من الزائف في دين من يناظرونه أو يجادلونه.

٢. تبين أنه كلما طور أهل الكتاب أدواتهم في الجدل، قابل ذلك حركة علمية ضخمة في المقابل من المسلمين.

٣. أن أهمية الملكة النقدية في الجدل مع أهل الكتاب من زوايا كثيرة تدور حول وصول المعلومة بحد ذاتها دون شائبة مؤثرة عليها، سواءً أكان دافع الشائبة تشويشاً محضاً أو خالطها ظروف الطرح أو زاوية التناول، بحيث أثرت العوامل المصاحبة لفحص النص إلى تأثير على الطرح النقي للنقد فحيزت المستمع أو المتحدث أو حتى أثرت على مساق النص نفسه.

٤. أن ضوابط شروط الملكة تتلخص فيما يأتي:

أ. أن تكون الملكة راسخة.

ب. أن تتكرر وتمارسها النفس.

ت. أن يكون الاستعداد العقلي حاضراً فيها.

ث. أن تكون مصاحبة للنقد ومعينة له.

ج. أن تمنع تلك الملكة تحول ساحة المناظرة إلى جدل عقيم.

ح. ألا يغضب صاحبها من ذكر الحق.

خ. أن يدرك صاحب الملكة السوية ما لا يغيب عن أهل النظر من بدهيات الجدل المحمود.

د. أن تحمله الملكة على التفريق بين التنظير أو التقعيد أو التأصيل.

ذ. عدم عزل الفكر أثناء الجدل عن الواقع.

ر. أن يحذر من مفسدات ثمرة الجدل.

ز. أن تمكن الملكة صاحبها من اتخاذ القرار الصائب في المضي أو الامتناع عن المناظرة.

س. أن يميز بين المنهي والواجب في الجدل.

ش. الحاذقون من نظار المسلمين، يناظرون على طريقة التنزل مع الحذر من عوارض الكلام أن تحمل

على غير محلها أو أن يؤخذ التنزل عقيدةً عنهم .

ص. أن مرد الملكة وموجهها لابد أن يكون النصح لله ورسوله على منهاج النبوة .

٥. أن من ثمراتها ما يأتي :

- تحقيق الانتفاع من العلم .
- إبعاد ساحة الجدل والمناظرة عن الخروج بلا ثمرة .
- تهب الملكة للمناظر حدساً في تبين حال المعاند من طالب الحق، ويسهل عليه تمييزه .
- الملكة توقف الباحث عن الحق عن ضلاله .
- تمكن الملكة صاحبها من تغيير أسلوبه الجدلي إذا لمح عدم جدواه مع المخالف إلى أسلوب أكثر فاعلية أو أدق نتيجة
- يدرك صاحب الملكة الفرق بين الدعوى العامة وبين كيفية تحقيقها على الواقع .
- يدرك صاحب الملكة مآلات الأمور ببصيرة قد لايدركها غيره .
- تؤتى الملكة صاحبها قدرة على ضرب الأمثلة بالمحسوس لتبيين الحقيقية وتقريب المعنى وتنبيه الخصم .
- تهب الملكة لصاحبها فهم قلب الدليل على المخالف، ويدرك صاحب الملكة الحاذقة أن حجة الخصم كثيراً ما تكون هي حجة عليه لا له .
- تمنع الملكة صاحبها من الاندماج في عقيدة الآخر المناظر ولا يخدع في ذلك، بل يظل يكرر القواعد السليمة ويرد الأمر إليها .
- أن صاحب الملكة الحاذقة يدرك الفرق بين الغلبة وذكر الحق، ولا يفعل ذلك لمجرد الانتصار لنفسه .
- توجه الملكة صاحبها لنقض المقدمات والعموميات، فتنهدم التفاصيل بعد ذلك .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

فهرس المصادر

١- إثبات نبوة النبي محمد ﷺ، علي بن ربَّن الطبري، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.

٢- الأشباه والنظائر في قواعد الفقه لسراج الدين أبو حفص عمر الأنصاري المعروف بابن الملقن، تحقيق مصطفى الأزهري، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م .

٣- أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، محمد بن عبد الرحمن الخميس، الناشر: دار الصميعي، المملكة العربية السعودية .

٤- إظهار الحق لرحمة الله الهندي وهو محمد رحمت الله الكيرانوي (المتوفى : ١٣٠٨هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق : الدكتور محمد أحمد محمد ملكاوي،، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - السعودية، الطبعة : الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م .

٥- الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام، للقرطبي محمد بن أحمد الخزرجي (المتوفى: ٦٧١هـ)، المحقق: د. أحمد حجازي السقا، الناشر: دار التراث العربي - القاهرة .

٦- إفحام اليهود، السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، الناشر: دار الجيل - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٠، تحقيق : د.محمد عبد الله الشرقاوي.

٧- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق : إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥.

٨- درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ،ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١٧ه - ١٩٩٧م.، تحقيق : عبد اللطيف عبد الرحمن .

٩- الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبدالله دراز ط هنداوي - القاهرة - جمهورية مصر العربية .

١٠- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ﷺ، لمحمد بن إبراهيم الوزير (ت٨٤٠ هـ)، تحقيق : علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

١١- شرح القواعد الفقهية، المؤلف: أحمد بن الشيخ محمد الزرقا -١٢٨٥هـ - ١٣٥٧هـ - صححه وعلق

عليه: مصطفى أحمد الزرقا، الناشر: دار القلم – دمشق / سوريا، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

١٢– الشريعة، أبوبكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن – الرياض / السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م

١٣– الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، وهو محمد بن أبي بكر الزرعي، الناشر: دار العاصمة – الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ – ١٩٩٨، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله.

١٤– الطبقات الكبرى، محمد بن سعد البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ عام ١٤١٠هـ.

١٥– العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ لأبي بكر بن العربي وهو محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي المالكي (ت : ٥٤٣هـ)، قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب رحمه الله، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ

١٦– الفصل في الملل والأهواء والنحل، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة .

١٧– لسان العرب لابن منظور، تحقيق : عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله و هاشم محمد الشاذلي، دار النشر: دار المعارف، البلد : القاهرة

١٨– المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعلامة محمد صالح العثيمين، كاملة بنت محمد بن جاسم الكواري، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م

١٩– المختار في الرد على النصارى لعمرو بن بحر الجاحظ أبو عثمان، ، تحقيق مع دراسة تحليلية تقويمية، د.محمد الشرقاوي الناشر: دار الجيل – مكتبة الزهراء ١٩٩١ م .

٢٠– المختصر في أخبار البشر، لابن كثير عماد الدين إسماعيل بن علي (ت : ٧٣٢هـ)، المؤلف: الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى .

٢١– المسيح عليه السلام دراسة سلفية، رفاعي سرور، الناشر: دار هادف للطباعة والنشر.

٢٢– معجم الأديان رزهيلنيس، جون، ترجمة هاشم أحمد محمد، مراجعة عبدالرحمن الشيخ، ط١، ٢٠١٠م، المركز القومي للترجمة، جامعة القاهرة

٢٣– معجم المؤلفين – عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت

٢٤– المعجم الوسيط، تأليف إبراهيم مصطفى أحمد الزيات وحامد النجار، دار النشر: دار الدعوة وعناية مجمع اللغة العربية .

٢٥– المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبي حفص عُمر بن إبراهيم الحافظ، الأنصاري القرطبي .

٢٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، والكتاب لأبي حفص عُمربن إبراهيم الحافظ، الأنصاري القرطبي، تحقيق وتعليق محيي الدين ديب ميستو- أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، نشردار ابن كثير، دمشق - بيروت) ط١، ١٤١٧هـ.

٢٧- الميزان في مقارنة الأديان حقائق ووثائق للمستشار محمد عزت الطهطاوي .

٢٨- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل بن محمد البغدادي (ت: ١٣٩٩هـ)، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول ١٩٥١، أعادت طبعه: دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان .

* * *